

### مختيما:

## الرجل الذي "يختزل كل الضياء الياباني"

قبل سنوات، أثار فيلم "ميشيما" للمخرج الأمريكي بول شرايدر الدهشة في مهرجان كان السينمائي. لكن الاهتمام بهذا الكاتب الياباني الكبير الذي يمثل "الروح اليابانية الحقيقية" أخذ بعده التوثيقي الآخر عندما أصدرت دار "Putnam" الأمريكية أخيراً كتاباً لجورج مونيهان بعنوان "حياة ميشيما" The Life of Mishima. وفي أقل من ستة أشهر ترجم الكتاب إلى كل من الفرنسية والألمانية والنرويجية والسويدية. في كتابه Anti Memories "يقف الروائي والفيلسوف ووزير الثقافة الفرنسي الراحل اندريه مالرو (1901.1976) مشدوها أمام "الولادات الآسيوية":

"هنا تولد الشمس،

هنا يولد الأنبياء،

ولكن هل صحيح أن هنا، أيضاً، تولد النهاية؟! "

طرح اندريه مالرو هذا السؤال، وتوارى الياباني يوكيو مشيما، فقد حاول، كأبي ياباني آخر، أن يثبت الشيء المخيف وهو أن الانسان يستطيع ان ينتزع المبادرة: "الموت باقصى قدر من الوحشية...". وبالطبع، فإن كثيرين لن يوافقوا أياً من رجال "الهراكيري" الذين يقولون ان ضوء القمر "يأخذ شكل السيف ثم ينغرز في الأحشاء، وتكون الولادة الثانية"... في مهرجان كان السينمائي، قبل سنوات عرض المخرج الأمريكي بول شرايدر في فيلمه "ميشيما" الذي روى قصة مؤلف "غبار الازاهير" الذي انتحر، على طريقة "السموراي" في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام 1970. الفيلم يدخل الى الموت الآسيوي، كما يدخل الى الحياة الآسيوية. ولكن اليابانيين اعترضوا أن المخرج الأمريكي "انتهك حرمة القيم اليابانية"، تماماً كما فعل الرئيس الأمريكي هاري ترومان عندما أمر بالقضاء القنبلة الذرية على كل من هيروشيما وناغازاكي... لم يعترض اليابانيون لأن القنبلة انتهكت الحياة، وإنما لأنها انتهكت القيم: "جاءت من أعلى"، ولم تفعل كما يفعل أبطال السموراي الذين يقاتلون أعداءهم وجها لوجه، فالفروسية نبيل وشهامة.

في كتابه " حياة مشيما " يتحدث جورج منيهان عن مشيما " كما لو أن القنبلة موجودة في رأس الروائي ... " أجل ، لقد كانت موجودة هناك ، وعندما وقع الامبراطور هيروهيتو وثيقة الاستسلام أمام الجنرال مالك آرثر ، قائد القوات الأمريكية في المحيط الهادئ ، لم يكن الشرط الأساسي إلغاء المؤسسة العسكرية اليابانية ، وإنما "إلغاء لغة الروح داخل العقل الياباني" .

وهكذا لم يكن بإمكان يوكيو مشيما أن يقول : "أيها الأمريكيون ، إننا نريد استعادة جثتنا ، لكن الأمريكيين لم يسمعونا" أنهم ، في الحقيقة ، لا يسمعون أبداً ، بل "فتحوا أسواقهم للسيارات اليابانية" ، ولم تكن هذه "دبابات ملونة" تذرع شوارع نيويورك ، وسان فرانسيسكو ، ولوس أنجلوس ، بل كانت سيارات حقيقية تثير الهلع في نفوس "أباطرة الفولاذ" في الولايات المتحدة الأمريكية .

قرر الرئيس رونالد ريغان وقف "الغزو" الياباني ، أو بالأحرى وقف رد الفعل الياباني ، لكن يوكيو مشيما كان يعتقد أنه لا بد من "موقف أبدي" من القنبلة :

"ليس ثمة ياباني واحد ، باستثناء الموتى ، يقول بضرورة إصدار طبة أمريكية عن هيروشيما ، إننا لا نريد أن نقتل الهواء ، ولا أشعة الشمس ، ولا ذكريات المدينة ، لكننا نريد أن يشعر كل أمريكي من هؤلاء أن الحروف لا تزال حارة تحت جلودنا " .

قبل أن يهاجم مشيما الولايات المتحدة قام بشن هجوم مرير على "ورثة الجماجم" في اليابان ، أي أولئك الذين تجاهلوا "كل شيء... بما في ذلك الدم" ، وانهمكوا في لعبة "العرض الطلب" ، وأقاموا "إمبراطورية الترانزيستور" فأصبح اليابانيون في كل بيت ، "بدأ من بيت نيلسون روكفيلر الذي يقنتي رجالاً آلياً" **Robot** ، وانتهاءً بآخري بيت في موزمبيق" ، حيث يستخدم أصغر موظف في الإدارة آلة حاسبة من صنع ياباني ... ربما لكي يحسب ، في آخر النهار ، أنه لم يشتغل شيئاً ! " .

إن الياباني ، كما يقول مشيما ، "يصبح أمريكياً عندما يركض وراء السلعة في كافة أرجاء العالم" ، وفضلاً عن ذلك "ليس المهم أن يكون في شقوق الجدران" [ إشارة إلى مكيفات الهواء اليابانية ] وإنما المهم أن تكون في الخلايا الدماغية للعالم" ، ذلك أن العالم ينسى هيروشيما "ونحن نرغمه على ذلك ... " .  
لكن هيروشيما لم تعد يابانية ، منذ أن ماتت ... "لقد أصبحت ملكاً للزمن ، ووقف الضمير العالمي - كأني حارس مشنت الذهن - يبحث عن مقعد محايد كي يستريح " .

لقد قرر يوكيو مشيما - كموقف اعتراضى - أن "يضع القنبلة في عقل العالم" . التقط بأصابعه كل رماد هيروشيما ، فتح الجمجمة ثم ملأها بالرماد ... ومنذ تلك اللحظة "انتهى العقل" !

إن كراهية مشيما للأمريكين لا حدود لها : "أيها السكارى فوق كل أرصفة العالم ، لتتوقف كؤوسكم عن العمل لمدة دقيقة واحدة ، دقيقة واحدة فقط من أجل أرواحنا وأرواحكم" ، ولم يكن بالإمكان أن يقتنع مشيما بأن الولايات المتحدة وقفت عن الموت الياباني ، فجورج موبنهان ، يقول أن مشيما كان أول من حذر من احتمال قيام الرئيس ليندون جونسون بـ "إلقاء بضعة قنابل ذرية" على كل من الصين وفيتنام .

يقول مشيما إن الأمريكيين يعتقدون ، وهم محقون في ذلك ، أن "السلعة العبقريّة التي ينتجونها هي الموت ، وبعد ذلك تأتي كل السلع الأخرى الصالحة للحياة" ، وهو بذلك يتفق مع الروائي الأمريكي جون شتاينبك الفائز بجائزة نوبل للآداب عام 1962 ، الذي يعتقد "أننا نصنع كل هذه الحضارة من أجل كل هؤلاء الموتى ... "

إن مشيما لا يخاطب العالم بل يخاطب البيت الأبيض، و"راعي البقر" الجالس في المكتب البيضاوي تحديداً، : "إنني أكرهكم"، وعندما يغرز السيف في أحشائه وهو يهتف بحياة الامبراطور كان يريد ان يقول للأمريكيين : "أنا نملك القدرة على الحياة..."

والغريب أن رجلا مثل مشيما يملك فكرا يرتبط الى هذا الحد بالامبراطور، لكن هيرو هيتو بالنسبة لليابانيين ليس بالرجل العادي ؛ انه "الرمز الذي يرتدي الزي العسكري"، وكان الروائي الكبير يعتقد "ان من يتفوق في صناعة التاريخ هو ذلك الذي يتفوق في صناعة الموت". ان الامبراطور هو الشخص الوحيد الذي يحول دون ان تتحول اليابان الى "قرد امريكي"... صحيح أن الأمريكيين جرّوه من كل ألقابه الإلهية، لكن هذا لا يعني، بأي حال من الأحوال، تجريده من "الروح الالهية".

هكذا يقول مشيما ورجال الساموراي الذين "لا يخافون الوحوش، ولا دبيب العناكب، ولا حراس السجون". في الواقع ان من يقرأ كتابه "أشياء سوداء" يرى في يوكيو مشيما الرجل الذي "يختزل كل الضياع الياباني" - على حد تعبير أندريه مالرو.

ماذا يفعل اليابانيون سوى ان يتذكروا موتاهم؟ انه يقف خلف الزجاج لكأنما يقف خلف الريح يشاهد القمر وهو يتحطم، ويشاهد الليل وهو يتساقط، ويشاهد نفسه وهو يدور حول الكرة الارضية، كأى كاهن اصيب بلوثة عقلية... لكن شخصية الرجل تبدو اكثر وضوحا في "إعترافات قناع" Confessions of a Mask. ان مشيما ليس الرجل المثالي ؛ انه يقف امام رغباته "كالثعلب الذي يبحث عن فرصة ما"، كل شيء يصبح جائزا في تلك اللحظات التي يسقط بها الليل نحو الأعلى. هكذا يفهم الرغبة، سقوط نحو الأعلى، وكان يشعر في ذروة هذيانه السياسي أن القوة هي "الاعتصاب الجميل".

هل هو جنون الكاتب ام انه الجنون الياباني؟ إنها اليابان... ويلاحظ مونيهان سخط مشيما على المثقفين الغربيين "الذين يتعاملون معنا كالأسمك، أجل كالأسمك، التي تحطم عمودها الفقري"... ان الأمريكيين ينظرون بنا على أننا "قروء تجارب في المختبرات". هل نتذكر الطريقة التي مات فيها ؟ لقد اتفق مع خمسة اشخاص على اقتحام ثكنة ايشيفيا التي كان يتابع فيها تدريبه العسكري. تمكنت المجموعة من السيطرة على الثكنة، وقام مشيما باعتقال قائد الثكنة ماشينا، وهو أحد أبرز القادة العسكريين في اليابان. حاول بعض الجنود انقاذ قائدهم العسكري، لكن مشيما ورفاقه الخمسة تصدوا لهم بالسيف، وفي هذا الجو الدراماتيكي خطب مشيما في الجنود والضباط ضد نظام الحكم الذي "بدأ يزدرى العسكريين مع انهم العصب الرئيسي للأمة"، مركزا على "ضرورة إنبعث اليابان" والافانها "سائرة حتما في طريق الاندثار"...

لقد انتهى دور السيف الياباني، وعلى مشيما أن يموت، وكان أن مزّق امعاءه بالسيف فيما بادر احد رفاقه الى جزّ عنقه، ولكن بعد حوار لا يمكن وصفه بالكلمات... كان مشيما يملك لغة ادبية ساحرة، وهذا ما أضفى طابعاً تراجمياً على الموقف... لقد مات وهو يشاهد غروب شمس اليابان. ان يوكيو مشيما هو "الغبار الدّري" الذي تركته قبيلة هاري ترومان على هيروشيما وناغازاكي ؛ لم يصل الحريق الى الجلد فقط، بل وصل الى داخل العقل. هل هو ممثل الساموراي أم أنه صيحة الانذار!؟

عبدالقادر حسين ياسين  
السويد